

مجله الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ۲۲، ربيع ۱۳۹۱ هـ. ش/ ۲۰۱۲ صص ۲۴-۱

تحليل خطاب إخوان الصفا في قصة تداعي الحيوان على الإنسان

هومن ناظمیان^۱

الملخص

شهد القرن الرابع الهجري ازدهاراً ثقافياً وحضارياً رائعاً في شتى مستويات حياة المسلمين؛ حيث ازدهرت نشاطات علمية وفلسفية وأدبية خاصة في الشرق الإسلامي. في هذه الأجواء نشأت جماعة إخوان الصفا السرية الذين كانوا قائلين بضرورة إدماج الفلسفة اليونانية في الشريعة الإسلامية لغسلها مما اعتراها من الجهل والضلالة. فألّفوا أثراً موسوعياً ضخماً يشتمل على إثنين وخمسين رسالة ونشروا عقائدهم خلالها واتخذوا القصة وسيلة لنشر عقائدهم بعض الأحيان؛ من أشهرها قصة تداعي الإنسان على الحيوان في الرسالة الثانية والعشرين.

درسنا هذه القصة على أساس البنية الفكرية والعقائدية لإخوان الصفا والآراء التي طرحوها في تبين معتقداتهم في شتى مجالات الاجتماعية والسياسية والعقائدية لتبيين ركائز خطابهم في هذه القصة. تبين هذه الدراسة أن خطاب إخوان الصفا في هذه القصة خطاب نقدي يشمل معظم شرائح المجتمع العباسي في القرن الرابع ويرتكز على ركائز منها النزعة العقلانية، النزعة المثالية، النزعة الصوفية والنقد الاجتماعي والسياسي للمجتمع البشري عامة والمجتمع العباسي خاصة.

المفردات الرئيسية: تحليل الخطاب، إخوان الصفا، النقد الاجتماعي، النقد السياسي.

Houmannazemyan@yahoo.com

۱. أستاذ مساعد في جامعة تربيت معلم (الخوارزمي) بطهران (فرع كرج)

تاريخ استلام البحث: ۸۹/۷/۴ تاريخ قبول البحث: ۹۰/۱۱/۶

المقدمة

كل نص أو كلام يحتوي على معلومات كثيرة؛ ولهذا ينبغي أن يعتبر النص أو الكلام كموضوع معرفي، ولدراسة هذه المادة نحتاج إلى أسلوب (شعيري، ۱۳۸۱، ۳). أصبح تحليل الخطاب من أهم أساليب دراسة أنواع الكلام والنص في شتى الحقول المعرفية من الدراسات الاجتماعية والسياسية والدينية والأدبية وعلم النفس والتاريخ والفن... هذا التنوع جعل مفهوم الخطاب متعدد الجوانب والأبعاد؛ حيث نواجه خطابات مختلفة في حقول معرفية متعددة مثل خطاب السلطة والخطاب السياسي والخطاب الإيديولوجي والخطاب الإعلامي والخطاب الأدبي... وهذه المجالات المتنوعة زادت مفهوم الخطاب إهاماً وغموضاً.

حاولنا في هذه المقالة أن ندرس خطاب إخوان الصفا في قصة من نودار التراث الإسلامي وهي قصة تداعي الحيوان على الإنسان في الرسالة الثانية والعشرين من رسائل إخوان الصفا. درست هذه القصة - حسب اطلاع كاتب هذه السطور - سلفاً في إطار تحليل العناصر القصصية لها في مقالة تحت عنوان: «دراسة البنية القصصية لقصة المناظرة بين الإنسان والحيوان والجن في رسائل إخوان الصفا» في مجلة العلوم الإنسانية الدولية، العدد ۱۶ (۳)، الخريف ۲۰۰۹. علاوة على هذه، قد أجريت ثلاث دراسات حول إخوان الصفا في المجالات الجامعية المحكمة: «بينش سياسي - اقتصادي إخوان الصفا»، حميد عنایت، اطلاعات سياسي واقتصادي، ۱۳۷۷، شماره ۱۲ و«نظريه اخوان الصفا درباره چگونگی پیدایش كثير از واحد»، عين الله خادمی، مقالات وبررسیها، بهار وتابستان ۱۳۸۳، شماره ۳۷ و«اخوان الصفا، ابن مسكويه وبيروني ونظريه تكامل زيستی»، حسن میانداري، متافريك (مجله دانشكده ادبيات وعلوم انساني اصفهان)، بهار وتابستان ۱۳۸۸، دوره جديد شماره ۴۵.

إن هذه الدراسة تهدف إلى تحليل خطاب إخوان في القصة نظراً إلى ما طرح خلالها من الآراء والمعتقدات والنقد الاجتماعي والسياسي على لسان الجن والحيوان عبر دراسة أبرز محاور القصة والأجزاء الرئيسة التي تبين معتقدات إخوان الصفا واستنباط ركائز خطابهم مستشهدةً بنماذج من القصة نفسها.

الخطاب

الخطاب مفهوم متعدد الجانب والمعنى، وقد حيث اكتنفه الإبهام والغموض خاصة بسبب تنوع الحقول العلمية والمعرفية التي تتصل بهذا المفهوم مثل اللسانيات والدراسات الأدبية والفلسفية والاجتماعية والسياسية وعلم النفس والتاريخ والفن (مك دانل، ٩). لفظه الخطاب (discourse) مأخوذة من اللفظة الفرنسية (discours) وهي بدورها مقتبسة من اللفظة اللاتينية (discursus). بمعنى الحوار والكلام (المصدر نفسه، ١٠).

كان اللساني الإنكليزي زليك هريس رائد دراسات الخطاب في ١٩٥٢ م هو الذي وسّع مفهوم الخطاب إلى مجال أوسع من الجملة ولهذا كان تحليل الخطاب في بداياته مرتكزاً على الألسنية لكنه تجاوز في ما بعد إلى الإهتمام بالجوانب الاجتماعية والثقافية (يقطين، ١٧ و١٨).

تعدّد مفهوم مصطلح الخطاب بتعدّد تصوّرات المهتمّين به؛ إذ تنوّعت المنطلقات نتيجة اختلاف فهم المهتمّين على وفق التطور في ما أنتج في مجال نظريته. تنبع هذه التعاريف من اتجاهين: الإتجاه الألسني والإتجاه الاجتماعي. في الإتجاه الأول نواجه تعاريف ترتكز على التعريف بالخطاب في إطار مفاهيم الألسنية، منها هذه النماذج:

- على المستوى اللغوي يشير مصطلح الخطاب في معناه الأساسي إلى كل كلام يتجاوز الجملة الواحدة سواءً كان مكتوباً أو ملفوظاً (الرويلي، ١٥٥).

- الخطاب مصطلح مرادف لـ (الكلام) parole كما عرّفه دي سوسير.

- الخطاب وحدة لغوية ينتجها المتكلم تتجاوز أبعاد الجملة أو الرسالة كما عرّفه هاريس.

- الخطاب وحدة لغوية تفوق الجملة تولد من لغة جماعية كما عرّفه بنفسه (بدري الحري، ٣٩ و ٤٠) وهو يعرفه أيضاً: الخطاب هو استخدام اللغة عبر استعمال فردي (شعيري، ١٣٨٥، ١٣) وهو في هذا التعريف يؤكد على ثلاث نقاط: أولاً التأكيد على الدور التوظيفي للغة في تكوين الخطاب، ثانياً التأكيد على مبدع يكون الخطاب وثالثاً التأكيد على استخدام اللغة التي يمكن إعتبارها بحثاً في المخزون الثقافي والفكري للمجتمع (المصدر نفسه، ١٣).

إذا تجاوزنا إتجاه اللسانيات ندخل مجال الدراسات الاجتماعية، ومن هذا المنطلق، الخطاب هو مجموعة من النصوص والأقوال ذات النظام والتنظيم ويشير إلى نظام فكري يتضمن منظومة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الاجتماعي بغية تملكه

معرفيا ومن ثم يفهم منطقته الداخلي. (بدرى الحبي، ٤٠) وعلى صعيد الدراسات الاجتماعية والإيدئولوجية يحدد الخطاب في إطار وظائفه الاجتماعية ومشروعه الإيدئولوجي ويعرف بأنه «الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاماً متتابعاً تسهم في نسق كلي متغير ومتحد الخواص وعلى نحو يمكن معه أن تتألف الجمل في خطاب بعينه لتشكل نصاً مفرداً وتتألف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطاباً أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرداً» كما يشير هذا المصطلح إلى مجموعة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الاجتماعي بغية تملكه معرفيا (المصدر نفسه، ٤٠). وحسب رأى كريس بالديك لمفهوم الخطاب معنى واسع حيث يشتمل على كل نوع من الكلام أو النص وكل استخدام للغة في أى حقل من المعارف البشرية (مك دانل، ٢١).

قصارى القول أن مصطلح الخطاب استعمل طوال الآونة الأخيرة بمعان مختلفة وفي الوقت نفسه متقاربة يمكن تلخيصها في ثلاثة تعاريف رئيسية:

- ١- الخطاب وحدة لغوية لها معنى وهدف وعناصرها مترابطة.
 - ٢- الخطاب حصيلة الارتباط بين منتجي الحوار خلال بنية اجتماعية ثقافية.
 - ٣- الخطاب هو فعل إزاء نص يمثل البنية الصورية للخطاب (يار احمدى، ١).
- يستعمل الخطاب حالياً بمعنيين مختلفين وفي الوقت نفسه مترابطين؛ المعنى الأول وهو مقتبس من الألسنية وتنبع من الإتجاه الأنجلو الأمريكية يحدد مفهوم الخطاب كوحدة لسانية كبيرة والمعنى الثانى يركز على الدراسات الاجتماعية وتنبع من الإتجاه الفرنسى (مكاريسك، ٢٥٦).

يتضح مما سبق أن الخطاب هو نظام يحتوي على مجموعة من المتوجات الفكرية التي تطرح بغية إيصالها إلى المتلقى عبر النصوص السمعية أو البصرية أو المكتوبة (ميرزائى، ٤٨). فكل كلام أو خطاب يمكن إعتبره تيار أو ظاهرة اجتماعية وله بنية اجتماعية وماهية اجتماعية وبعبارة أخرى الخطاب أرضية لها ركائز اجتماعية (مك دانل، ٥٥ و ٥٦).

اللغة وعناصرها من العناصر الرئيسة في الخطاب، لكن الظروف الاجتماعية تلعب دوراً لا يستهان به فى تكوينها لأن مفهوم الخطاب يؤكد على العملية الاجتماعية التي تنتج المعنى، فالخطاب تجسيد للمعنى والروابط الاجتماعية وتقسيم للأفكار والصلات الاجتماعية (عضدانلو، ١٧). بعبارة أخرى لا تنبع المعاني من داخل اللغة بل من داخل الصلات

الإجتماعية والسياسية. عندما تنتشر الكلمات والمفاهيم داخل الخطابات المختلفة تفيد معانيها (المصدر نفسه، ١٨). فيمكننا أن نقول الظروف الإجتماعية هي التي تحدد خصائص الخطاب (فيركلو، awu-dam.org).

إخوان الصفا

شهد القرن الرابع الهجري ازدهارا رائعا في النشاطات الفلسفية في ايران والعراق «حتى يخيل إلى لإنسان أنه لم يبق في العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة» (ضيف، ٢٨٣)، خاصة في بغداد حيث كانت فيها منتديات يختلف إليها الفلاسفة والعلماء والنشاطات العلمية كانت في ذروتها (المصدر نفسه، ٢٨٨-٢٨٥ وفريد حجاب، ٣٤). من مظاهر هذا النشاط العلمي والفكري والفلسفي ظهور جماعة سرية متفلسفة في البصرة عرفت بإخوان الصفا. اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم العلمي والفكري وكان لهم فرع في بغداد. (أيوب، ١٥٣) ظهور هذه الجماعة تعتبر ظاهرة فريدة في تاريخ الحضارة الإسلامية؛ لأنها من أهم وثائق التراث الإسلامي بما تمثل من التقاء تيارات متعددة وأفكار مختلفة من كتب سماوية وغير سماوية والشريعة العربية والفلسفة اليونانية (فريد حجاب، ٥).

اكتنفهم الغموض منذ نشأتم وكتابة رسائلهم؛ حيث لا تعرف اسمائهم بالضبط ولا مذهبهم ولا يزال الباحثون مختلفين في الإجابة عن هذين السؤالين: ما هي أسماء مؤلفي هذه الرسائل وما كانت غاياتهم من تأليفها؟ أول وثيقة تاريخية تحدثت عنهم هو كتاب أبي حيان التوحيدي، عرفهم ابو حيان هكذا: «منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيهقي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوفي وغيرهم، فصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصاية قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصدّاقة، واجتمعت على القدس والطّهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنّهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنّته، وذلك أنّهم قالوا: الشريعة قد دتست بالجهالات، واختلطت بالضلّالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنّها حاوية للحكمة الاعتقاديّة، والمصلحة الاجتهاديّة» (أبو حيان التوحيدي، ١٦٣). ولكن هناك بعض الإشارات إلى أن المقدسي اعتبر المؤلف الرئيس لهذه الرسائل، حيث يقول السجستاني: «أبو سليمان المقدسي له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة برسائل إخوان الصفا وكلها مشحونة

بالأخلاق وعلم الألمان (السجستاني، ٣٦١ و ٣٦٢) كما يرى الشهرزوري أن ألفاظ الرسائل للمقدسي (شهرزوري، ٢٦٨).

لكن الباحثين يرفضون انتماء كتابة هذه الرسائل الضخمة إلى شخص واحد؛ لأنها تشمل حقول معرفية كثيرة من الرياضيات والطبيعات إلى الإلهيات والعلوم الشرعية والفلسفة وتستبعد كتابة مثل هذه المجموعة الضخمة خلال مدة قصيرة على يد شخص واحد. إذن لا بد أن تكون قد كتبت خلال بضع سنوات وعلى أيدي عدة أشخاص (خراساني، ٢٤٦).

اكتنف مذهبهم الغموض أيضاً واختلف الباحثون في تحديد معتقداتهم كل الإختلاف. يجب أن ننتبه إلى أن القرن الرابع الهجري كان عصر الصراعات العقائدية بين أصحاب الآراء والملل فأراد إخوان الصفا أن يذوبوا هذه الخلافات في مذهب واحد وشامل مبني على أسس ومبادئ مستوحاة من كافة الأديان والمذاهب والنحل وكان اتجاههم الإفتتاح نحو جميع المذاهب والنحل حيث كانوا يوصون أصحابهم بعدم رفض المذاهب الأخرى، فكان مذهبهم كان مزيجاً من المعتقدات الشيعية والثقافة اليونانية واتخذوا كثيراً من مبادئ الفلسفة الطبيعية متأثرين بالفيثاغورثية الحديثة ولجأوا إلى تأويل القرآن تأويلاً مجازياً وكانوا مثاليين يطمحون نحو بناء عالم أفضل غير هذا العالم البشري وكانوا يميلون نحو العرفان كل الميل حيث اعتبروا من أهم طبقات العرفاء في التاريخ الإسلامي (انظر: خراساني، ٢٥٣-٢٤٥ وفريد حجاب ٣٥ وأيوب، ١٥٣ و Nicholson , 370&371). ولكن رفض المتشددون هذه الآراء والمعتقدات رفضاً عنيفاً حيث اعتبروها ضالة ومنحرفة وقاموا بتحريق ما وجدوا من رسائلهم سنة ٥٤٥ (دورانت، ٣٢٦).

قصة تداعي الحيوان على الإنسان

قصة تداعي الحيوان على الإنسان في حضرة ملك الجن من أروع القصص في رسائل إخوان الصفا. بإمكاننا أن نعتبرها نقداً لاذعاً للمجتمع العباسي في إطار خرافة تتركز على سلسلة من المناظرات بين مندوبين من الحيوان والجن من جهة وممثلين من مختلف الشرائح للمجتمع الإنساني من جهة أخرى. بنيت القصة على التجاء الحيوانات إلى ملك الجن وشكواها من ظلم الإنسان وجوره.

هذه القصة في الرسالة الثانية والعشرين من رسائل إخوان الصفا وهي الرسالة الثامنة في الجلد الثاني عنوانها: «الجسمانيات والطبيعات في كيفية تكوين الحيوانات واصنافها» ويعلن مؤلفوها غرضهم من تأليفها هكذا: «نريد أن نذكر في هذه الرسالة أيضا طرفا من كيفية تكوين الحيوانات وبدء كونها ونشوتها ونماتها وكمية أجناسها فنون أنواعها وخواص طباعها واختلاف أخلاقها ونبين أيضا أن آخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان وآخر مرتبة الإنسان متصل بأول مرتبة الملائكة... ليكون في ذلك بيان ودليل لمن كان له قلب صاف ونفس زكية وعقل راجح على كيفية ترتيب الموجودات ونظام الكائنات عن علة واحدة ومبدأ واحد...» (إخوان الصفا، ١٧٨، ١٧٩).

ملخص القصة

كان ملك عادل من الجن اسمه «بيراست الحكيم» لقبه «شاه مردان» يعيش مع رعيته في جزيرة «صاغون» في البحر الأخضر فيما يلي خط الإستواء. وكانت الجن تعایش أصناف الحيوانات تعایشا سلمياً بالهناء والرخاء. ولكن تغيرت الظروف حيث طرحت عاصفة سفينة إلى هذه الجزيرة، فزلت ركاها ووجدوها مكاناً خصباً مريحاً فاستطابوها وأستوطنوها وأخذوا يصيدون أصناف الحيوانات ويستعبدونها كما فعلوا في سائر أقطار الأرض. فخافت الحيوانات على حرقتها وشكت إلى ملك الجن واستمدت منه العون، فأحضر الملك قضاة الجن وفقهائهم وحكمائهم واستشارهم واستدعى مندوبي الإنس وسألهم عن دوافع أعمالهم. فادعى الإنس أنهم أشرف الخلائق وأصناف الحيوان عبيد لهم وللإنس الأمر والحكم وعلى الحيوان طاعة الإنس وخدمته.

أرسلت الحيوانات المتظلمة رسالاً إلى مختلف أجناس الحيوان وطلبت منها بعث ممثلين داهين مفوهين للمناظرة أمام ممثلي الإنس والدفاع عن حقوق الحيوانات. وهذا بداية سلسلة من المناظرات بين ممثلي الإنس والحيوان في حضرة ملك الجن وفقهائهم وحكمائهم وقضاةهم استغرقت أربعة أيام. طرحت خلال هذه المناظرات والمساحلات انتقادات لاذعة حول مساوئ المجتمع الإنساني على لسان بعض الحيوانات وحكماء الجن من جهة ومن جهة أخرى عرضت معلومات كثيرة حول طبائع الحيوانات وخصائصها البيولوجية وأشاروا خلالها إلى بعض

قصص الأنبياء. في نهاية المطاف غلب ممثلو الإنس وفشل مندوبو الحيوان وأقرت بحق الإنس وفضله وسيادته.

تحليل خطاب إخوان الصفا في هذه القصة

١- التزعة العقلانية:

هذه التزعة من أهم ركائز القصة، وهناك نماذج كثيرة منها خلال القصة نشير إلى بعض منها؛ بُنيت القصة على الإتيان بالحجج والبراهين والإستدلال والإستنتاج؛ حيث لا يقبل ملك الجن إدعاء دون بيّنة وحجة ولهذا بُنيت القصة على سلسلة من المناظرات والمباحثات بين مندوبي الإنس المدعّين سيادة الإنس على سائر الكائنات ومندوبي الحيوان المنكرين هذه المزاعم. عندما يواجه ملك الجن دعاوي الإنس يؤكد على ضرورة إقامة البراهين والحجج الواضحة ويقول: «إن الدعاوي لا تصحّ عند الحكام إلا بالبيّنات ولأثقبيل إلا بالحجة الواضحة فيما قلتّ وادعيت» (المصدر نفسه، ٢٠٩).

في موضع آخر عندما ادعى أحد ممثلي الإنس أن رجحان عقول الإنسان وخلقتهم وجوده حواسهم دليل على أن الإنس هم الأرباب والحيوانات عبيد لهم. يجيب ممثل البهائم: «وأما الذى ذكرته من رجحان العقول فلسنا نرى له أثراً أو علامة لأنه لو كان لكم عقول راجحة لما افتخرتم علينا بشئ هو من أفعالكم ولا اكتساب منكم بل هى مواهب من الله جلّ ذكره لتعرفوا مواقع النعم وتشكروا له ولا تعصوه وإنما العقلاء يفتخرون بأشياء هى أفعالهم من الصنائع الحكمة والآراء الصحيحة والعلوم الحقيقية والمذاهب المرضية والسنن العادلة والطرق المستقيمة ولسنا نراكم تفتخرون بشئ منها غير دعوى بلاحجة وخصومة بلابيّنة» (المصدر نفسه، ٢١٣ و ٢١٤).

عندما وصل رسول الحيوانات إلى الأسد ملك السباع رشّح بعض السباع أنفسهم للحضور فى مجلس ملك الجن والدفاع عن حقوق الحيوانات، ثم يبين الأسد خصائص الرسول: «... ولمن رسول الملك يجب أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً خبيراً فاضلاً مُنصفاً كريماً لايميل ولايجنف في الأحكام»، ثم يوضح خصائص الرسول: «أولها يحتاج أن يكون رجلاً عاقلاً حسن الأخلاق بليغ الكلام فصيح اللسان... محتزراً فيما يُجيب... حسن العهد مراعيّاً للحقوق كئوماً للسرّ قليل الفضول في الكلام... ولايكون شرّهاً ولايكون حريصاً... بل

يكون ناصحاً لمُرسله وإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه...» (المصدر نفسه، ٢٤٣ و ٢٤٤) وفي نهاية هذه الوصايا يقول النمر: «لا يصلح لهذا الشأن إلا الحكيم العادل والعالم الخير كليله أخو دمنة» (المصدر نفسه، ٢٤٣ و ٢٤٤). نرى أن في كل هذه الأوصاف يعتبر العقل ركيزة أساسية في الحياة الاجتماعية والسياسية ويؤكد عليه كثيراً خاصة فيما يرتبط بالشؤون الحكومية وبإمكاننا أن نعتبر تركيز إخوان الصفا هذا على أهمية العقل تعريضاً بالسلطات العباسية.

٢- التزعة المثالية:

من الركائز الأساسية في خطاب إخوان الصفا في القصة هي التزعة المثالية، حيث نستطيع أن نتلمس ظواهرها خلال النص، وهذه التزعة تتركز على مستويين: المستوى الأول في صعيد السلطة حيث نرى أن إخوان الصفا ينتهزون أية فرصة لطرح آرائهم حول الشروط اللازمة على الملوك والحكام؛ على سبيل المثال عندما توصف خصائص ملك الجن وهو أفضل ملك في القصة يقال هكذا: « كان يراست الحكيم عادلاً كريماً منصفاً سَمحاً يقري الأضياف ويؤوي الغرباء ويرحم المبتلى ويمنع الظلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يتغنى بذلك غير وجه الله تعالى ومرضاته» (المصدر نفسه، ٢٠٥).

وفي موضع آخر يصف النمر خصائص الملوك للأسد ملك السباع هكذا: « ... أما الملك فينبغي أن يكون رجلاً عاقلاً أديباً لبيباً سخياً شجاعاً عادلاً رحيماً، عالي المهمة، كثير التحنن، شديد العزيمة، صارماً في الأمور، متأثياً ذا رأي وبصيرة ومع هذه الخصال ينبغي أن يكون مشفقاً على رعيته، متحنناً على جنوده وأعوانه، رحيماً بها كالأب المشفق على أولاده الصغار، شديد العناية بصلاح أمورهم... » (المصدر نفسه، ٢٤٠).

المستوى الثاني هو الصعيد الاجتماعي والذي يتبلور في النقد الاجتماعي اللاذع للمجتمع البشري الذي يشتمل الشرائح المختلفة في القرن الرابع الهجري حيث نرى أن الإنسان في القصة يقع في جانب الشر ومعظم الحيوانات تقع في جانب الخير، وإزاء كل خصائل الشر في الإنسان نواجه الخصال الخير في الحيوانات؛ حيث لانرى فيها شيئاً من الشر تقريباً إلا في الحيوانات التي تألف الإنسان مثل الكلب والهر والفرس. فإمكاننا أن نقول أن الحيوان يمثل في القصة التزعة المثالية في الإبتعاد عن الشر والركون إلى الخير.

٣- آراء إخوان الصفا حول الحكم والحاكم :

من المضامين الرئيسية التي يهتم به إخوان الصفا كثيراً خلال القصة هي قضية الحكم والحاكم والشروط اللازمة التي يجب على الحاكم الصالح أن يلتزم بها والنقد اللاذع للحكام في المجتمع العباسي آنذاك. عندما يتحدث النمر إلى الأسد ملك السباع يبين موقف الحاكم من الناس ووقف الناس من الحاكم هكذا: « سبيل الملك أن يدبر الرأي ويشاور أهل البصيرة بالأمر ثم يأمر وينهى ويدبر الأمور كما يجب وسبيل الرعية أن يسمعوا ويطيعوا لأن الملك من الرعية بمنزلة الرأس من الجسد والرعية والجنود بمنزلة الأعضاء من البدن. فمتى قام كل واحد منها بما يجب من الشروط انتظمت الأمور واستقامت وكان في ذلك صلاح الجميع وفلاح الكل» (المصدر نفسه، ٢٤٠).

ثم يشرح النمر للأسد الخصال والشروط الواجبة على الملك والرعية قائلاً: «... أما الملك فينبغي أن يكون رجلاً عاقلاً أديباً لبيباً سخياً شجاعاً عادلاً رحيماً، عالي الهمة، كثير التحنن، شديد العزيمة، صارماً في الأمور، متأنياً ذا رأي وبصيرة ومع هذه الخصال ينبغي أن يكون مشفقاً على رعيته، متحنناً على جنوده وأعدائه، رحيماً بما كالأب المشفق على أولاده الصغار، شديد العناية بصلاح أمورهم. وأما الذي يجب على الرعية والجنود والأعداء فالسمع والطاعة للملك والمحبة له والنصيحة لأعدائه وأن يعرفه كل واحد منهم ما عنده من المعرفة وما يحسن من الصناعة وما يصلح له من الأعمال ويعرف الملك أخلاقه وسجاياه ليكون الملك على علم منه ولم يتزل كل واحد منهم منزلته ويستخدمه فيما يحسن ويستعين به فيما يصلح له» (المصدر نفسه، ٢٤٠ و ٢٤١).

عندما حضر زعماء الطوائف من الإنس وممثلي الحيوانات مجلس ملك الجن، سأل ملك الجن مندوب السباع وهو كليله أن يصف له الأسد، ومن أوصافه كملك السباع: «... وهو شديد العزيمة، حازم الرأي، إذا همّ بأمر قام إليه نفسه لا يستعين بأحد من جنوده وأعدائه سخي النفس،... عفيف النفس عن الأمور الدنيئة لا يتعرض للنساء ولا للصبيان ولا للنيام... قال: كيف سيرته في رعيته قال: أحسنها وأعدلها» (المصدر نفسه ٢٩٢). وهكذا نرى في المحادثة بين البغاء مندوبي الجوارح وملك الجن عندما يتحدث عن خصائص ملك الجوارح العنقاء يصف سيرته في رعيته بالعدل والإحسان (المصدر نفسه، ٢٩٣ و ٢٩٤).

وهذه الخصائص متوفرة في أكثر زعماء الحيوانات في القصة؛ حيث أن اليعسوب أمير الحشرات حضر مجلس ملك الجن بنفسه ولم يرسل مندوباً إشفاقاً على رعيته وتجنباً من أن ينال أحداً منهم سوء أو أذى (المصدر نفسه، ٣٠١).

في موضع آخر، يسأل اليعسوب ملك الجن عن كيفية طاعة الجن لرؤسائها وملوكها يصف الملك أنها أحسن طاعة وأطوع انقياد لأمرها ونهيها ويضيف قائلاً: «...فاعلم أن الجن أختيار وأشرار... أما حسن طاعة الأختيار منها لرؤسائها وملوكها فوق الوصف مما لايعرفه البشر من بني آدم لأن طاعتها للموكها كطاعة الكواكب في الفلك للنير الأعظم الذي هو الشمس وذلك أن الشمس في الفلك كالملك وسائر الكواكب لها كالجنود والأعوان والرعية ... تسير بسيرها في استقامتها ورجوعها ووقوفها ... ولا تتعدى حدودها وجريان عادتها في طلوعها وغروبها وتشريقها وتغريبها وجميع أحوالها ومتصرفاتها لأيرى منها معصية ولا خلافه» (المصدر نفسه، ٣٠٦).

ثم يسأل اليعسوب ملك الجن عن سبب هذه الطاعة والإنقياد فيجيب أن سببه هو طاعة الملائكة وانقيادهم لرب العالمين وهم جنوده وطاعتهم له كطاعة الحواس الخمس للنفس الناطقة ثم يشرح أن الحواس الخمس في إدراكها ممثلة للنفس الناطقة ولا تحتاج إلى أمر ونهي ووعود أو وعيد وهكذا طاعة الملائكة لرب العالمين الذين لايعصون الله (المصدر نفسه، ٣٠٦ و ٣٠٧). ثم يفصل في شرح كيفية طاعة الجن للموكها وأمراتها ثم يعيب الإنسان بعصيانه وخذاعه: «فأما طباع الإنس وجبلتهم فبالضد مما ذكرت وذلك أن طاعتهم لرؤسائهم وملوكهم أكثرها خداع ومكر ونفاق وغرور وطلب للعوض والأرزاق والمكافآت... فإن لم يروا ما يطلبون أظهروا المعصية والخلاف وخلعوا الطاعة والخروج من الجماعة والعداوة والحرب ... فهكذا حكمهم مع أنبيائهم ورسول ربهم تارة ينكرون دعوتهم بالحجود... ويطلبون منهم المعجزات بالعناد وتارة الإجابة بالنفاق والشك والإرتياب والمكر والدغل والغش... كل ذلك لعلّط طباعهم ورداءة جبلتهم ... وتراكم جهالاتهم وعمى قلوبهم، ثم لايرضون حتى يزعمون أنهم أرباب وغيرهم عبيد لهم بلاحجة ولابرهان» (المصدر نفسه، ٣٠٨).

نرى بوضوح آراء إخوان الصفا في كيفية نظام الحكم في المجتمع: أن يكون الحاكم جامعاً لجميع خصال الخير من العدل والإحسان والحزم والتقوى والزهد... وأن يكون الناس كلهم مطيعين ملّين دعوة هذا الحاكم الصالح للسير في سبيل الله ومرضاته ونعلم أن هذه الخصائص

المثالية تختلف كل الاختلاف عن واقعيات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي وما نعرف عن سلوك الخلفاء العباسيين خاصة في عصر انقسام الإمبراطورية العباسية إلى الدول والإمارات والحروب الأهلية بينها في القرن الرابع الهجري.

في موضع آخر يفتخر الرجل الفارسي بالشرائح الاجتماعية والنظم الإدارية في المجتمع البشري من الملوك والأمراء والوزراء والعلماء والكتّاب وأصحاب الحرف والصناعات والزرايع وغيرهم، فيرد عليه البيغاء وهو مندوب الجوارح ردّاً عنيفاً حيث يؤدي ممثلي الإنس بالصمت والخجل وخلال رده يتعرض بالحكام والملوك من الإنس ويقارنهم برؤساء الحيوانات والحشرات: «... لجماعة النحل وجماعة النمل وجماعة الطيور وجماعة السباع رؤساء أعوانا وجنوداً ورعية وأن رؤسائها وملوكها أحسن سياسة وأشد رعاية من ملوك بني آدم بما وأشد تحننا عليها ورأفة بما وشفقة عليها بيان ذلك أن أكثر ملوك الإنس ورؤسائها لا ينظرون في أمر الرعية وجنودهم وأعوانهم إلا لجرّ منفعة منها أو دفع مضرة عنها... وليس هذا من فعل الملوك والفضلاء... وخصال الرياسة أن يكون الملك والرئيس رحيماً رؤوفاً برعيته مشفقاً متحنناً على جنوده وأعوانه اقتداءً بسنة الله تعالى الجواد الكريم لخلقهم وعبادته كائناً من كان... وملوك أجناس الحيوانات ورؤسائهم هم بسنة الله تعالى أحسن اقتداءً من ملوك الإنس ورؤسائهم (المصدر نفسه، ٣٣٩ و ٣٤٠).

في هذه الأوصاف تعريض لاذع بمساوئ الحكام العباسيين وعمالهم؛ حيث يصرح إخوان الصفا على أنهم لا يهتمون برعاياهم فحسب، بل لا يباليون بسنة الله تعالى وتعاليم أنبيائه ويعتبرون زعماء الحيوانات أحسن سلوكاً من زعماء الإنس.

الدين والملوك أخوان توأمان

يدعو إخوان الصفا إلى هذه الفكرة أن الملك والدين لا ينفصلان بل يجب أن يتضامنا ويتماسكا كأخوين توأمين. تطرح هذه الفكرة عندما يجري حوار بين الممثل الفارسي وملك الجن حول سبب الاختلاف في الآراء والمذاهب والأديان بين الناس؛ يؤكد الممثل الفارسي أن الديانات قصدها واحد وهو التوجه إلى الله ولكن هذه الخلافات ليس من جهة الدين ولكن من جهة الملوك لأن الدين والملوك أخوان توأمان لا يفترقان ولا قوام لأحدهما إلا بأخيه «غير أن الدين هو الأخ المقدم والملوك هو الأخ المؤخر... فلا بد للملك من دين يدين به الناس

ولابد من مُلك من ملك يأمر الناس بإقامة سننه طوعاً أو كرهاً، فلهذه يقتل أهل السديانات بعضهم بعضاً طلباً للمُلك والرياسة» (المصدر نفسه، ٣٦٨).

٤- التزعة الصوفية:

ذم الدنيا والترهيد فيها والتنبيه على أهمية الآخرة ومضار الغفلة عنها من مضامين القصة ومحاور خطاب إخوان الصفا. ينتهزون الفرصة للتعبير عن آرائهم وتوجيه النصح نحو القارئ في بلاط ملك الطيور وهو شاه مرغ عندما يطلب الملك من وزيره طاووس أن يشرح له خصائص الطيور وأذكارهم في نغماتهم، مثلاً: «وأما الديك المؤذن ... العارف بأوقات الصلاة المذكّر بالأسحار المنبّه للجيران ... وهو القاتل في أذانه في وقت السحر: اذكروا الله ما أطول ما أنتم نائمون والموت والبلى لاتذكرون ومن النار لاتخافون وإلى الجنة لاتشتاقون... وأما الدُرّاج المغني ... وهو القاتل في مرآثيه ومواعظه شعراً:

يا مُفنياً لِلعُمَرِ فِي البُنيانِ	وغازس الأشجارِ فِي البُستانِ
وباني القُصورِ فِي الميَـدانِ	وقاعدا فِي الصّـدرِ فِي الإيوانِ
وغافِلاً عَن نُوبِ الزّمانِ	احذرّ ولا تُغتَرّ بِالرحمنِ
واذكُرْ غَدَ التّرحالِ لِلجَبانِ	مُجاوِرِ الحَيّاتِ وَالديدانِ

مِن بَعْدِ عَيشِ طَيِّبِ المانِ

... وأما البلبل الحاكي... يجاور بني آدم في بساتينهم ويخالطهم في مساكنهم... ويعظهم في تذكاره لهم فهو القاتل لهم عند هههم وغفلاتهم: سبحان الله كم تلعبون سبحان الله، كم تحكون، سبحان الله ألاّ تسبحون، سبحان الله أليس للموت تولدون، أليس للخراب تنبون، أليس للفناء تجمعون، كم تلعبون وكم تولعون أليس غدا تموتون وفي التراب تُدفنون ...» (المصدر نفسه، ٢٥٢-٢٥٠)

وفي بلاط ملك الجوارح وهو العنقاء نواجه اليوم بمثل زاهداً ورعاً عارفاً بتاريخ الإنسان» ينظر إلى آثارهم القديمة ويعتبر بالقرون الماضية ... يصوم النهار ويحيي الليل وربما يعظ بني آدم يذكّرهم وينوح على ملوكهم الماضية ... ويقول:

سَأَلْتُ الدَّارَ تُخْبِرُنِي عَنِ الْأَحْيَابِ مَا فَعَلُوا
فَقَالَتْ لِي: أَقَامَ الْقَوْمُ أَيَّاماً وَقَدْ رَحَلُوا
فَقُلْتُ: أَيْنَ أَطْلُبُهُمْ وَقَدْ لَقُوا وَاللَّهِ مَا عَمِلُوا

(المصدر نفسه ٢٥٨ و ٢٥٩)

فيحاول إخوان الصفا أن يذم طموحات الإنسان المادية وغفلته عن زوال الدنيا وفنائه وأن يذكره بالموت وعالم الخلود والبقاء ويحرضه على ترك أمانيه الطويلة التي تنسي الإنسان ذكر الخالق وطاعته.

٥- التزعة العلمية في خدمة الدين:

بني خطاب إخوان الصفا في هذه القصة على دعامتين: النقد الاجتماعي اللاذع وعرض معلومات علمية حول الحيوانات لإثبات قدرة الله وحكمته. هناك نماذج كثيرة خلال القصة على سبيل المثال عندما يفتخر الرومي بعلوم الإنسان ومعارفهم وصناعاتهم يجيب اليعسوب قائلاً: « يزعم هذا الإنسي بأن لهم علوماً ومعارف وفكراً ورويةً وتدبيراً وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا ونحن عبيدهم فلو أنهم فكروا في أمرنا واعتدوا أيضاً أحوالنا لبان لهم من أمرنا وعرفوا من تصاريف أحوالنا وتعاوننا في إصلاح شأننا أن لنا أيضاً علماً وفهماً ومعرفةً وتميزاً وفكراً ورويةً وسياسةً وتدبيراً أدقّ وألطف وأحكم وأتقن مما لهم فمن ذلك اجتماع جماعة النحل في قراها وتمليكها عليها رئيساً واحداً واتخاذ ذلك الرئيس أعواناً وجنوداً ورعيةً وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها المنازل والبيوت المسدسات المتجاورات المكتفات من غير بركار ومعرفة هندسة كأنها أبايب مجوفة مسدسة... » (المصدر نفسه، ٣١٠ و ٣١١). ثم يطنب في شرح خصائص وعجائب من حياة بعض الحشرات كالنحل والنمل والجراد ودود القز منها: «وأيضاً أيها الملك لو علم الإنسي من حال النمل وكيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتاً وأزقةً ودهاليز وغرفاً وطبقات منعطفات وكيف تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضاً مصوناً كي لا تجري إليها المياه وبعضها مرتفعاً تخبيئ الحب والقوت في بيوت منعطفات إلى فوق حذراً عليها من المطر... » (المصدر نفسه، ٣١١).

في موضع آخر عندما يفتخر ممثل الإنس بوجود الصناع وأصحاب الحرف في المجتمع البشري يرد عليه البيغاء ويشرح جوانب من حياة النحل والعنكبوت ودودة القز والخطاف والأرضة والنعامة، على سبيل المثال يتحدث عن عجائب صناعة النحل: « ثم قال البيغاء: أيها الإنسي أما الذي ذكرت بأن منكم صناعاً وأصحاب حِرَف فليس ذلك بفضيلة لكم دون غيركم ولكن قد شاركم فيها بعض أصناف الطيور والهوام وغير ذلك من الحيوانات وبيان ذلك أن النحل هي من الحشرات وهي في اتخاذها البيوت وبناء منازل الأولاد أحذق وأعلم وأحكم من صناعكم وأجود وأحسن من بناء المهندسين والبنائين منكم وذلك أنها تبني منازلها طبقات مستديرات كالتراس بعضها فوق بعض من غير خشب ولا لَبِن ولا آجر ولا جِصَّ كأنها غرف من فوقها غرف وتجعل تقدير بيوتها مسدسات متساويات الأضلاع والزوايا... ولا تحتاج في عمل ذلك إلى قراءة كتب الهندسة ولا إلى البركار والمسطرة... » (المصدر نفسه، ٣٤٥).

ثم يشير إلى تسييح الحيوانات التي لا يدركها الإنسان: « وأما الذي ذكرت بأن منكم الشعراء والخطباء والمتكلمين والمذكرين وما شاكلهم فلو أنكم فهمتم منطق الطير وتسييح الحشرات والهوام وتهليلات البهائم وتذكار الصرصر ودعاء الضفدع ومواعظ الليل وخطب القنايين وتسييح وتكبير الكراكي وأذان الديك... وغيرها من الحيوانات ذوات الأصوات والطين والزميز لعلمتم معشر الإنس وتبين لكم أن في هذه الطوائف خطباء وفصحاء ومتكلمين وواعظين... مثل ما في بني آدم (المصدر نفسه، ٣٤٩).

نرى أن الإهتمام بالعلم وهنا العلوم الطبيعية في رأى إخوان الصفا ليس هدفاً بنفسه بل هو طريق الوصول إلى معرفة الخالق وتبيين حكمته في خلقه. بإمكاننا أن نقول في خطاب إخوان الصفا العلم في خدمة الدين وأهدافها التربوية .

٦- النقد اللاذع للمجتمع في العصر العباسي

النقد الاجتماعي محور رئيسي في خطاب إخوان الصفا في القصة. يطرح هذا النقد من بداية القصة إلى نهايتها على لسان مندوبي الحيوانات وحكاماء الجن مراراً. ويتمحور هذا النقد حول ثلاثة محاور:

أولاً: النقد الاجتماعي العام يشمل عادات الإنسان وسلوكه بصفة عامة

ثانياً: نقد الشرائح الاجتماعية المختلفة من أصحاب الديانات والمذاهب إلى أصحاب الحرف والصناعات
ثالثاً: النقد السياسي للأمرء والخلفاء العباسيين
وهنا نأتي ببعض نماذج منها:

٦-١ النقد الاجتماعي العام:

مما افتخر به مندوبو الإنس ما قال الأعرابي وشرح لذائد الحياة في المجتمع البشري من أنواع المأكولات والأطعمة والأشربة واستنبط أن هذه الملذات دليل على سيادة الإنسان ولكن فتند المزارستان هذه الدعوي قائلاً: «واعلم أيها الملك الكريم أن هذا الإنسي افتخر بطيب مأكولاتهم ولذيذ مشروباتهم ولا يدري أن ذلك كله عقوبات لهم وأسباب الشقاوة وعذاب أليم إذ في حرامها عذاب وفي حلالها حساب وهم فيما بينهما من الخوف والرجاء» (المصدر نفسه، ٣١٧-٣١٥).

ثم يشرح ما يعاني الإنسان في سبيل الحصول على أنواع الطعام والملذات ويعتبر هذه المعانات نتيجة طمع الإنسان وحرصه ويؤكد على أن الحيوانات بعيدة عن مثل هذه الصعوبات؛ لأنها تحصل على طعامها من الطبيعة وتقنع بما رزقها الله وإزاء كل لذة تصيب الإنسان أنواع مختلفة من البلايا والأمراض: «وأيضاً فإن لكم بكل لذة ذكرتم من فنون مأكولاتكم وألوان مشروباتكم فنوناً من العقوبات وألواناً من العذاب مما نحن بمعزل عنه من الأمراض المختلفة والأعلال المزمنة والأسقام المهلكة ... كل ذلك أصابكم لما عصيتم بركم وتركتم طاعته ونسيتم وصيته ... فمن أين زعمتم أنكم أرباب ونحن عبيد لولا الوقاحة والمكابرة وقلة الحياء وأنتم في الحياة صحيحي البدن ففي تعب وكد لتحصيل الإلتماسات والمشتهيات وما دُتم مرضى ففي عقوبة وحسرة وبعد الموت في العقاب والعذاب والخطاب ووقوف الحساب ونحن فارغون من هذه الجملة فمن الموالى ومن العبيد منا ومنكم» (المصدر نفسه، ٣١٩ و ٣٢٠).

وفي موضع آخر يفتخر رجل عبراني من العراق بأن الله سبحانه اختص بني آدم بإرسال الرسل والكتب السماوية والتعاليم الدينية وأنواع المناسك والعبادات والشعائر دون الحيوانات، يرد عليه ممثل الطيور قائلاً: «لو تذكرت أيها الإنسي ونظرت واعتبرت لعلمت وتبين لك أن

هذه كلها عليكم لا لكم ... لأنها كلها عذاب وعقوبات وغفران للذنوب ومحو للسيئات وهي عن الفحشاء والمنكر... واعلم أيها الإنسي أن الله سبحانه وتعالى لم يبعث رسله ولا أنبياءه إلا إلى الأمم الكافرة الجاهلة وعامة المشركين معه غيره والمنكرين بربوبيته... إذ قولكم إن الله ثالث ثلاثة وقولكم عزير ابن الله وقولكم المسيح ابن الله... فمن هذه الخرافات والمجازات التي تبحى منكم وأنتم المغيرون أحكامه والعاصون أوامره والهابون من طاعته والجاهلون إحسانه والغافلون عن ذكره... فلماذا بعث الله الأنبياء والرسل إليكم ليُعرفوكم طريق الهدى وسبيل الرشاد... ونحن براء من هؤلاء لأننا عارفون بربنا مسلمون مؤمنون به موحدون به غير شاكين ولا ممتريين ولا ضالين» (المصدر نفسه، ٣٢٤ و ٣٢٥).

ثم يشرح فوائد كل نوع من العبادات والمناسك والفرائض لتطهير الإنسان وتركيته مثلاً في الصلاة: «ثم اعلم أيها الإنسي أن الأنبياء هم أطباء النفوس ومنجموها ولا يحتاج إلى الطبيب إلا المرضى... وأما الصوم والصلاة فإنما هي فرضت عليكم ليكفر عنكم سيئاتكم... فالأنبياء (ع) يعالجونكم بهذه المداواة إذ أنتم مرضى من المعاصي ونفوسكم قد امتلأت من مأكولات الذنب... وأما الصدقات والزكوات فإنما فرضت عليكم من أجل أنكم تجمعون من فضول الأموال من الحلال والحرام والغصب والسرقعة... والبخل والشح والإحتكار ومنع الحقوق... وأما الذي ذكرت بأن لكم في الكتب آيات محكمات بينات للحلال والحرام والحدود والأحكام؛ فكل ذلك تعليم لكم وتأديب لجهلكم وعماكم وقلة معرفتكم بالمنافع والمضار وأن الإنسان كان ظلوماً جهولاً محتاجون إلى المعلمين والأستاذين والمذكرين والواعظين لكثرة غفلاتكم وسهوكم ونسيانكم... وأعلم أن هذه الأحكامات والموضوعات قيود وأغلال وسلاسل عليكم إذ الحكمة الإلهية اقتضت هذه الأسرار الواجبة وجعلت الموضوعات الشرعية والحكومية أستاذاً ومؤدباً لكم ونحن بمعزل عن جميع ذلك إذ قد ألهمنا الله تعالى إلى جميع ما نحتاج إليه من أول الأمر إلهاماً ووحياً بلا واسطة من الرسل ولا نداء من وراء حجاب كما أوحى إلى النحل بقوله تعالى: وأوحى ربك إلى النحل أن إتخذني من الجبال بيوتاً...» (المصدر نفسه، ٣٢٧-٣٢٥).

والنقد اللاذع هذا لسلوك الإنسان لا ينعصر بالجانب العقائدي للمجتمع البشري فحسب؛ بل يشمل جوانب أخرى كأنواع الصراعات وكثرة الحروب والقتال بين الشعوب؛ عندما يتهم الرجل العراقي السباع بأنهم أقسى قلوباً وأقل نفعاً وأكثر ضرراً يرد عليه كليله ممثل

السباع أن السباع علمت قلة رحمها وقساوة قلوبها من الإنسان وينقد سلوك الإنسان فسى إثارة الحروب والقتال بينهم والوسائط والطرق التي يستخدمونها لقتل بعضهم البعض مثلاً يقول: «... وأما الذي ذكرت من غارات السباع على الحيوانات وقبضها عليها وقتلها فإن ذلك كله إنما فعلته السباع بعدما رأت أن بني آدم يفعلون بعضهم ببعض منذ عهد قابيل وهابيل وإلى يومنا هذا نرى كل يوم من القتل والجرحى والصرعى في الحروب والقتال مثل ما شوهد في أيام رستم واسفنديار وأيام جمشيد وتبع وأيام الضحّاك وأفريدون ... وأيام عثمان ويزدجرد وأيام بني العباس وبني مروان وهلم جرّاً إلى يومنا هذا...» (المصدر نفسه، ٣٣٥-٣٣٣).

٦-٢ النقد الاجتماعي لبعض الشرائح الاجتماعية

لا ينحصر النقد بالملوك والشرائح المسيطرة على المجتمع العباسي، بل يحاول إخوان الصفا أن ينقدوا سلوك مختلف الشرائح مثل المنجمين؛ فَيشتون هجوماً عنيفاً عليهم ويتهمهم بالمركر والخداع على لسان البيغاء: « فأما الذي ذكرت من أمر المنجمين والراقين منكم فاعلموا أن لهم تمويهات وتوهيمات وتليبيسات ورزقاً رقيقاً ينفق على الجهلاء من العوامّ والخواصّ والنساء والصبيان والحمقى... وذلك أن أحدهم يخبر بالكائنات قبل كونها ويرجم بالغيب ويرجف به من غير معرفة صحيحة ودلائل عقلية واضحة وبراهين مثبتة... واعلم أيها الإنسي أنه لا يغتر بقول المنجم إلا الطغاة والبغاة من الملوك والجبابة منكم والفرعانة والنماردة والمغرورون بعاجل شهواتها والمنكرون أمر الآخرة ودار المعاد الجاهلون بالعلم السابق والقدر المحتوم... ويتوهمون أن أمور الدنيا تدبرها الكواكب السبعة والبروج الإثنا عشر ولا يعرفون المدبر الذي فوق الكل الذي هو رب الأرباب...» (المصدر نفسه، ٣٤٩ و ٣٥٠).

وينقدون المتفلسفين والمنطقيين والجدليين أيضاً على لسان البيغاء ويعتبرونهم من عوامل ضلالة الناس: « لأنهم هم الذين يُضلونّ بني آدم عن المنهاج المستقيم وصواب الطريق والدين وأحكام الشرائع بكثرة اختلافهم وفنون آرائهم ومذاهبهم ومقالاتهم وذلك أن منهم من يقول بقدم العالم ومنهم من يقول بقدم الهوى ومنهم من يقول بقدم الصورة... و منهم من قال بلا نهاية ومنهم من قال بالتناهي ومنهم من قال بالمعاد ومنهم من قال بالإنكار ومنهم من أقرّ بالرُّسُل والوحي ومنهم من أنكر ومنهم من قال بالعقل والبرهان ومنهم من قال بالتقليد من الأقاويل

المختلفة والآراء المتناقضة التي بنى آدم بها مبتلون وفيها متحرون متبلبلون شاكون وفيها مختلفون ونحن كلنا مذهبنا واحد وطريقتنا واحدة وربنا واحد ولانشارك به شيئاً... راضون بما قسمه الله تعالى إنا خاضعون تحت أحكامه، لا نقول: لم وكيف ولماذا فعل ودبر كما يقول المعترضون على ربهم في أحكامه وتدييره وصنعه» (المصدر نفسه ٣٥٥ و٣٥٦).

النقد اللاذع هذا، يشمل كل الشرائح الاجتماعية في العصر العباسي من التجار والدهاقين والكتاب وأصحاب الدواوين والفقهاء والعلماء والقراء والأمراء والخلفاء العباسيين مثلاً يقول البيهقي ناقدًا: «... وأما تجاركم فيجمعون من حرام وحلال وبينون السدكاكين والخانات ويملؤونها من الأمتعة ويحتكرونها ويضنون بها على أنفسهم وجيرانهم وأحبهم ويمنعون الفقراء والمساكين حقوقهم... وأما فقهاؤكم وعلماؤكم فهم الذين يتفقهون في الدين طلباً للدنيا وابتغاء للرياسة والولاية والقضاء والفتاوى بآرائهم وقياساتهم فيحللون تارة ويمرّمون تارة بتأويلاتهم، فيتبعون ما تشابهه ويتركون حقيقة ما أنزل الله من الآيات المحكمات فينبذوه وراء ظهورهم كأهم لا يعلمون... وأما خلفاؤكم الذين تزعمون أنهم ورثة الأنبياء فكفى في وصفهم ما قال الله تعالى وقال رسول الله (ص): ما من نبوة إلا ونسختها الجبروتية ويسمون باسم الخلافة ويسيروا بسيرة الجباية وينهون عن منكرات الأمور ويرتكبون هم منها كل محذور ويقتلون أولياء الله وأولاد الأنبياء (ع) ويسبّونهم ويغصبونهم على حقوقهم... واستطالوا على الناس افتخاراً ونسوا أمر المعاد وبعوا الدين بالدنيا والآخرة بالأولى، فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (المصدر نفسه، ٣٦١-٣٥٨).

٦-٣ نقد لأرباب المذاهب والنحل:

في موضع آخر يوجه إخوان الصفا نقدهم نحو أرباب المذاهب والنحل على لسان الهزاردستان الذي ينقد كثرة اختلاف مذاهب الناس وتضارب آرائهم حيث يقتلون بعضهم بعضاً وتشن بينهم الصراعات والحروب ويؤكد على أن الحيوانات براء من هذه الصراعات والخلافات حيث يقول الهزار دستان: « ونحن من هذه كلها برآء مذهبنا واحد واعتقادنا واحد وكلنا موحدون مؤمنون مسلمون غير مشركين ولا منافقين... نعرف ربنا وخالقنا ورازقنا... فنسبّحه ونلله ونقدسه بكرة وعشياً ولكن هولاء الأناص لا يفقهون تسبيحهم » (المصدر نفسه، ٣٦٧).

نتلمس من خلال هذه السطور مدى جرأة إخوان الصفا في نقد الشرائح الإجتماعية والثقافية في مجتمعهم وتبيين مساوئهم من عامة الناس وأصحاب الحرف والصناعات إلى أصحاب الثقافة الرسمية خاصة الفقهاء وكبار أصحاب السلطة السياسية خاصة الخلفاء .

٧- خلود الإنسان، فناء الحيوان

منذ بداية تداعي الحيوان على الإنسان ومنذ أول مناظرة بين مندوبي الإنس ومندوبي الحيوانات، شن الحيوانات نقداً عنيفاً على الإنسان وسلوكه ومجتمعه حيث لم يكن عند ممثلي الإنس رد على هذا النقد وباء الإنسان بالفشل حتى آخر مناظرة بين الخطيب الحجازي والجزارستان: عندما يقول الخطيب الحجازي أن الإنسان لا يفنى بالموت وهو خالد في عالم آخر ولا يفنى ولكن الحيوان ليس هكذا: « قال الحجازي: وكيف تساوت الأقدار بيننا وبينكم فإننا على أي حالة كانت، باقون أبد الأبدين ودهر الدهرين، إن كنا مطيعين فمع الأنبياء والأولياء والأئمة والأوصياء... ولو كنا مردودين إذن نتخلص بشفاعة نبينا محمد (ص) ونكون باقين في الجنة مع الحور والغلمان والروح والريحان... وأنتم يا معشر الحيوانات بمعزل عن جميع ذلك لأنكم بعد المفارقة تفسدون وتبلون وتفنون ولا تبقىون فهذا دليل على أننا أرباب وأنتم عبيد وخول لنا» عندما تصل المناظرة إلى هذه المرحلة تقبل الحيوانات هذه الحجج والبراهين وتقر بسيادة الإنسان: « فقالت حينئذ زعماء الحيوانات وحكام الجن بأجمعهم: الآن جئتم بالحق ونطقتم بالصواب وقلتم الصدق، لأن بأمثال ما ذكرتم يفتخر به المفتخرون ومثل أعمالهم فليرغب الراغبون ... » (المصدر نفسه، ٣٧٥ و ٣٧٦).

في ختام هذه القصة ملاحظتان هامتان تستلقت الإنتباه: الأولى التركيز على قضية خلود الإنسان بعد الموت التي تعتبر فضيلة وميزة رئيسة للإنسان ودليل قاطع على سيادته على سائر الكائنات وهذا الدليل يطرح على لسان الرجل الحجازي الذي يعرف تحت عنوان « الخطيب الحجازي المكي المدني » يمكن تفسيره بأن هذا الشخص في القصة، يمثل التيار الإسلامي لأنه مندوب من الحجاز .

والثانية: عندما تطلب الحيوانات والجن من الإنس أن يشرحوا أوصاف أهل الجنة وأولياء الله قام الممثل الفارسي ليشرح أوصافهم ولكن ما يستلقت النظر أوصاف هذا الممثل كما يعرفه إخوان الصفا وهي أوصاف جمعت كل الخصائص الحميدة في رأيهم: « فقام عند ذلك

العالم الخبير، الفاضل الذكي، المُستبصرِ الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النُسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة، المكي الأخلاق، الربّاني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني» (المصدر نفسه، ٣٧٦).

تتضح من هذه الأوصاف، وجهة نظر إخوان الصفا حول المذهب المرغوب فيه لديهم: مذهب جامع لكل الآراء والمعتقدات التي يعتبرها إخوان الصفا حقاً وصواباً. ومن اللافت للنظر، تأثير الثقافات المتنوعة في آراء الإخوان كالثقافة الإيرانية والهندية واليونانية وانفتاحهم على المذاهب الأخرى وابتعادهم عن النزعات المتشددة والعصبية.

النتائج

تبين هذه الدراسة أن خطاب إخوان الصفا في هذه القصة خطاب نقدي يشمل جميع شرائح المجتمع العباسي في القرن الرابع ويرتكز على ثماني ركائز:

١. النزعة العقلانية: التأكيد على ضرورة الإرتكاز على العقل في السلوك الإجتماعي والسياسي خاصة عند الملوك والحكام وعند تضارب الآراء والمعتقدات .
٢. النزعة المثالية: تتجلى في الشروط اللازمة على الحاكم من جهة وعلى الناس من جهة أخرى. فعلى الحاكم أن يكون جامعاً لخصال الخير من الزهد في الدنيا والتقوى ورعاية الشعائر الدينية والصدق والحنان والشجاعة والحزم والتدبر في أمور الحكومة ... وعلى الناس أن يطيعوا الحكام الصالح إطاعة واعية وصادقة ليساعدوا المجتمع المثالي في سيره إلى الله.
٣. النزعة الصوفية: تتجلى في ذم الدنيا والدعوة إلى ترك لذاتها ومقتها والانتباه إلى الدار الآخرة .
٤. النزعة العلمية: تتجلى في إهتمام إخوان الصفا بعرض معلومات علمية حول الحيوانات وحياتها مستهدفاً إلى تبين قدرة الله تعالى وحكمته في خلق الكون والكائنات الحية، بعبارة أخرى جعل إخوان الصفا العلم في خدمة الدين ومعرفة الخالق وحكمته.

٥. القول بتلاحم الحكم والدين: يؤكد إخوان الصفا أن قوام الدين رهين الحكم، كما أن قوام الحكم رهين الدين فيجب أن يكون تلاحم وترابط بين الحكم والدين.
 ٦. النقد الاجتماعي العام لسلوك البشر برمته: وهو نقد لمعظم نماذج السوك البشرية في الصعيد الديني والأخلاقي والصعيد الاجتماعي؛ من الغفلة عن ذكر الله وترك التعاليم الدينية ونبذها وارتكاب الذنوب والمعاصي إلى الطموح نحو الدنيا وانتهاك حقوق الآخرين وتعاطي الظلم...
 ٧. النقد الاجتماعي لبعض شرائح المجتمع العباسي؛ خاصة أصحاب الحرف والصناعات كالتجار والكتاب ومدعي بعض العلوم كالمنجمين والمتفلسفين وأرباب المذاهب والديانات ومدعي الزهد....
 ٨. النقد السياسي اللاذع للسلطات العليا؛ خاصة الخلفاء العباسيين الذين يرتكبون أنواع الذنوب ويدعون أنهم خلفاء رسول الله ويقتلون الأئمة الأبرياء .
- قصارى القول أن إخوان الصفا في هذه القصة يدعون إلى مدينة فاضلة على أساس مذهب يجمع بين مختلف المذاهب والآراء من الشريعة الإسلامية إلى الفلسفة اليونانية.

المصادر والمراجع

- آفاگل زاده، فردوس، تحليل گفتمان انتقادي، تهران، شركة انتشارات علمي وفرهنگي، چاپ اول، ١٣٨٥.
- إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، بيروت، دارصادر، لا. ت.
- ايوب، عبدالرزاق؛ انعكاس الفكر السياسي على الادب العربي في العصر العباسي، دمشق، دار طلاس، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.
- بدري الحربي، فرحان، الأسلوبية في النقد العربي الحديث: دراسة في تحليل الخطاب، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
- بهرامپور، شعبانعلی، درآمدی بر تحلیل گفتمان: گفتمان و تحلیل گفتمانی، انتشارات فرهنگ گفتمان، تهران، چاپ اول، ١٣٧٩.
- التوحیدی، أبوحيان، الإمتاع والمؤانسة، بيروت، شركة أبناء الشريف الرضي، ٢٠٠٣.
- دورانت، ويل، تاريخ تمدن، عصر إيمان (بخش اول)، ابوطالب صارمی، ابوالقاسم پابنده، ابوالقاسم طاهری، تهران، انتشارات و آموزش انقلاب اسلامی، چاپ اول، ١٣٦٦.

- الرويلي، ميجان وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.
- السجستاني، ابوسليمان المنطقي؛ صوان الحكمة، الدكتور عبدالرحمن البدوي، طهران، بنياد فرهنگ ايران، ١٩٧٤
- خراساني شرف الدين، «إخوان الصفا»، دائرة المعارف بزرگ اسلامي، زير نظر كاظم موسوي بجنوردي، تهران، چاپ اول، ١٣٧٥.
- شعيري، حميدرضا، مباني معني شناسي نوين، تهران، سمت، چاپ اول، ١٣٨١.
- _____، تجزيه و تحليل نشانه-معنا شناسي گفتمان، تهران، سمت، چاپ اول، ١٣٨٥.
- شهرزوري، شمس الدين محمد بن محمود، نزهة الأرواح وروضة الأفراح (تاريخ الحكماء)، ترجمه مقصود على تيريزي، تهران، انتشارات علمي و فرهنگي، چاپ اول، ١٣٦٥.
- ضيف، شوقي، عصر الدول الإمارات: الجزيرة العربية، العراق، إيران، القاهرة، دارالمعارف، الطبعة الثالثة، لا. ت.
- عضدانلو، حميد، گفتمان و جامعه، تهران، نشر ني، چاپ اول، ١٣٨٠.
- فريد حجاب، محمد؛ الفلسفة السياسة عند اخوان الصفا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.
- فيركلو، نورمان، «الخطاب بوصفه ممارسة إجتماعية»، رشا عبدالقادر، الآداب العالمية، السنة الخامسة والعشرون، العدد ١٠١ و ١٠٢ (مزدوج)، شتاء وربيع ٢٠٠٠. إتحاد الكتاب العرب بدمشق www.awu-dam.net
- القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء. موقع الوراق www.Alwaraq.net
- مكاريك، ایرنا رنما؛ دانشنامه نظريه های ادبی معاصر، مهران مهاجر و محمد نبوی، تهران، آگه، چاپ دوم، ١٣٨٥.
- مک دائل، دایان، مقدمه ای بر نظريه های گفتمان، حسينعلی نودری، تهران، فرهنگ گفتمان، چاپ اول، ١٣٨٠.
- ميرزايي، فرامز و ناهيد نصيحت، «روش گفتمان کاوي شعر»، الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، شتاء سنة ١٣٨٤، العدد ٤.
- ياراحمدی، لطف الله، گفتمان رايج و انتقادی، تهران، هرمس، چاپ اول، ١٣٨٣.
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.

تحليل گفتمان اخوان الصفا در قصه‌ی دادخواهی حیوان از انسان

هومن ناظمیان^۱

چکیده

تمدن اسلامی در قرن چهارم هجری در ابعاد مختلف فرهنگی و تمدنی در محله شکوفایی خود قرار داشت به گونه‌ای که فعالیت‌های علمی، فلسفی و ادبی در مشرق اسلامی از رونق بسیاری برخوردار بود. از جمله‌ی این فعالیت‌ها ظهور گروه سرّی اخوان الصفا در بصره و بغداد که معتقد بودند باید شریعت اسلامی را با فلسفه‌ی یونانی درهم آمیخت تا جهل و گمراهی که عارض شریعت شده، از آن پاک شود. آن‌ها دائره‌ المعارف بزرگی به وجود آوردند که شامل پنجاه و دو رساله و عقاید و تعلیمات خود را در قالب آن‌ها بیان کردند. آنان همچنین از ادبیات داستانی نیز برای بیان باورهای خویش سود می‌جستند؛ از جمله، قصه‌ی دادخواهی حیوان از انسان که در رساله‌ی بیست و دوم اخوان الصفا بیان شده است.

این داستان براساس ساختارهای فکری و اعتقادی اخوان الصفا و آرا و اندیشه‌هایی که اخوان الصفا در زمینه‌های گوناگون سیاسی، اجتماعی، فرهنگی و عقیدتی مطرح کردند مورد بررسی قرار گرفته تا گفتمان اخوان الصفا در این قصه تبیین شود. نتایج این پژوهش، نشان می‌دهد که گفتمان اخوان الصفا در این قصه، گفتمانی انتقادی است که بیشتر اقبالش جامعه عصر عباسی به ویژه صاحبان سلطه را در برمی‌گیرد و شامل هشت محور است از جمله خردگرایی، آرمان‌گرایی و انتقاد سیاسی و اجتماعی از جامعه‌ی بشری به طور عام و جامعه عصر عباسی به طور خاص.

کلیدواژه‌ها: تحلیل گفتمان، اخوان الصفا، نقد اجتماعی، نقد سیاسی

۱. استادیار دانشگاه تربیت معلم (خوارزمی) تهران (پردیس کرج)